الحفاظ على الأراضي بالغرب الأعلى الأوسط بين الخطاب والممارسة
–حوض المرابيح نموذجا–

باحث بسلك الدكتوراه حمزة لغبيسي
مختبر الدراسات والأبحاث "المجتمعات، التراب، التاريخ، والتراث (STHP)
تكوين "تدبير البيئة والتنمية المستدامة"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، جامعة محمد الخامس

الملخص:

عرف حوض المرابيح، الواقع بالغرب الأعلى الأوسط، والمغذي لحوضي حمد الله وورغة تواليا، عدة تدخلات كان الغرض منها استصلاح ووقاية الأراضي المتدهورة. وترمي ورقتنا هاته إلى توضيح نوع التدخلات بالحوض المدروس والجهات المسؤولة عنها، ومحاولة إبراز تفاعل الفلاح مع الجهات الرسمية والعمليات التحسيسية التي تشرف عنها.

الكلمات المفتاح: حوض المرابيح – الغرب الأعلى الأوسط – استصلاح – الأراضي المتدهورة.

Abstract:

The Marabih watershed, situated in the Upper Central Gharb and serving as a feeder to the Hamdallah and Ouergha watersheds, has been the focus of numerous interventions aimed at land reclamation and the protection of degraded areas. This paper aims to examine the nature of these interventions, identify the entities responsible for their implementation, and shed light on the dynamics between farmers and official authorities, including the awareness campaigns led by these institutions.

Keywords: Mrabih watershed, Upper central Gharb, protection, degraded areas.

مقدمة:

لطالما حظي الرأسمال الترابي المغربي باهتمام كبير من الجهات العمومية منذ ستينيات القرن الماضي، حيث أطلقت مجموعة من المشاريع الرامية إلى الحد من الفقد البيئي المنتشر في بعض المناطق أو التخفيف من آثاره. من أبرز هذه المشاريع، نجد "مشروع تنمية الريف الغربي"(DERRO) ، الذي انطلق في أوائل الستينيات بتمويل من المنظمة العالمية للتغذية والزراعة(FAO) ، إضافة إلى برامج أخرى مثل "البرنامج الوطني للتشجير"(PNR) ، وأخيرًا مخطط المغرب الأخضر الذي بدأ سنة 2008.

وقد ركز المشروعان الأولان بشكل أساسي على التشجير بهدف تثبيت السفوح والمحافظة عليها، بينما جاء مخطط المغرب الأخضر برؤى جديدة تسعى إلى تحقيق التنمية بالتوازي مع استصلاح الأراضي وحمايتها. ويتضح ذلك من خلال توظيف الأشجار المثمرة كوسيلة لحماية التربة من الانجراف.

ولعل مجال دراستنا – الحوض النهري الذي ينتمي إداريًا إلى جماعة عين الدفالي بإقليم سيدي قاسم ويضم خمس دواوير يبلغ عدد سكانها 14549 نسمة، وطبيعيا يلحق إلى الغرب الأعلى الأوسط، يدخل في كنف حوض حمد الله الذي يغذي بدوره حوض ورغة (الخريطة 01) – استفاد بدوره من بعض البرامج والتدخلات، وإن كانت حديثة نسبيًا، إذ جاءت مع برنامج "مخطط المغرب الأخضر". إلى جانب ذلك، توجد تدخلات أخرى لا تندرج ضمن إطار أي مشروع محدد.

الخريطة (01): توطين حوض واد المرابح

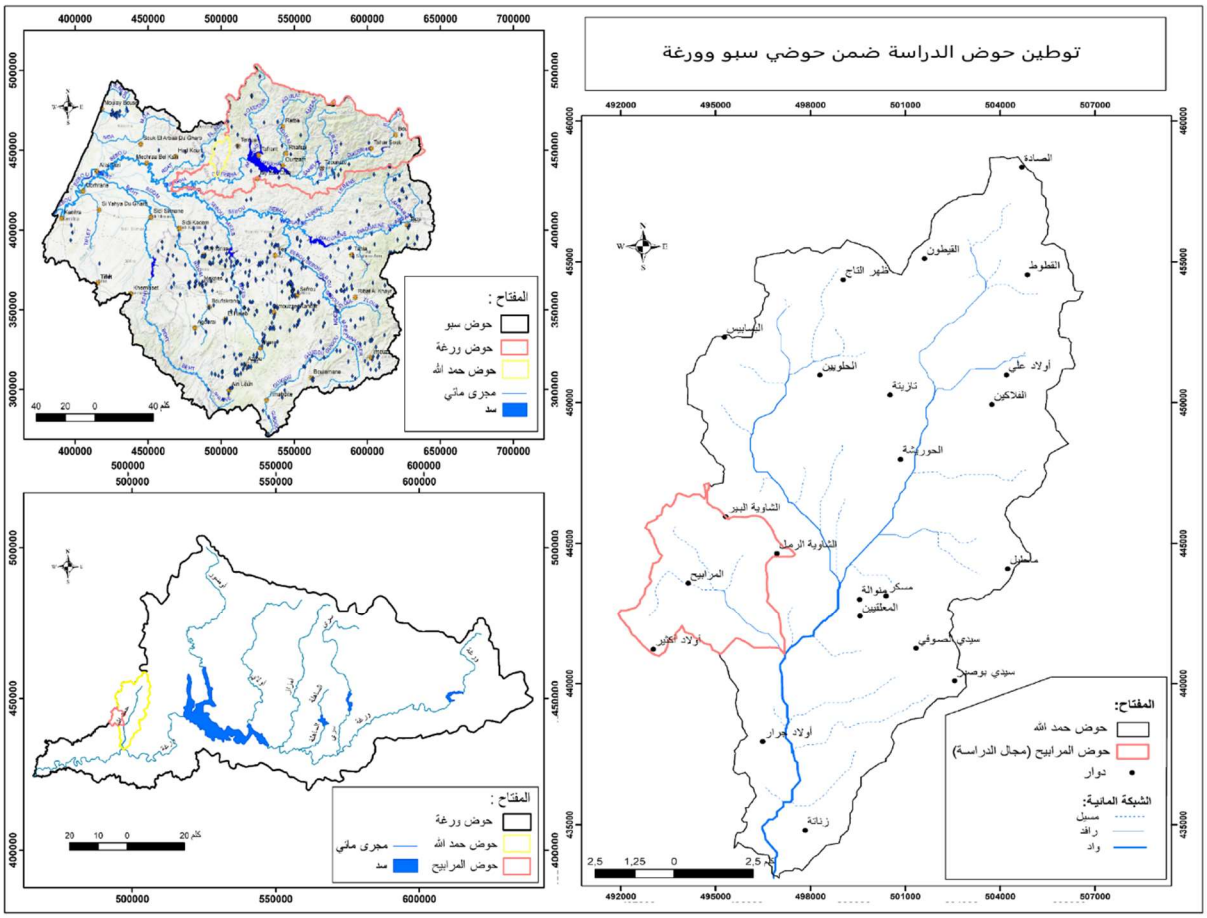

ما يميز هذه التدخلات هو عدم انتظامها المكاني وكونها محدودة نسبيًا، نتيجة للوضعية العقارية المعقدة في المنطقة. هذا التعقيد العقاري، الذي يعيق تدخل الدولة في معظم أراضي الحوض، دفعها إلى تبني مقاربة جديدة قائمة على الشراكة مع الساكنة المحلية. يتمثل

ذلك في تكوين الفلاحين ومدّهم بالوسائل اللازمة للتدخل في أراضيهم، كتنظيم أيام تأطيرية وتزويدهم بالشتائل للغرس. كما تشارك الدولة الساكنة في العملية الإصلاحية، مع مواكبتها حتى التأكد من أن أهم مراحل هذه العملية قد تمت بنجاح.

ونظرًا لأن المعلومات المستمدة من الجهات الرسمية، سواء تلك المبنية على التقسيمات الإدارية أو القائمة على الوحدات الجغرافية، نادرًا ما تأخذ في الاعتبار التقسيمات الهيدروغرافية، وإن وُجدت فإنها غالبًا ما تتعامل مع أحواض نهرية شاسعة المساحة ولا تتعاطى مع أحواض مجهرية كحوضنا (22كلم2). وفي ظل هذا الوضع، سنعتمد في دراستنا على دمج ومقاطعة البيانات الواردة من مصادر متعددة، والتي تشمل تصريحات الساكنة المحلية (من خلال الاستمارات الميدانية)، وما ورد عن الجهات الرسمية، بالإضافة إلى التدخلات الموثقة لدى هذه الجهات.

يهدف ذلك إلى تحليل الخطاب الإصلاحي للمؤسسات، استقصاء ممارساتها على أرض الواقع، واستعراض الوسائل المعتمدة في تحقيق هذا الإصلاح، وكل ذلك سيتم تناوله ضمن المحور الأول من الدراسة.

أما المحور الثاني، فسنتطرق فيه إلى أشكال الإعداد والتهيئة بحوضنا النهري، سواء تعلق الأمر بتلك التي تمارس بشكل تقليدي والمنفذة من طرف الساكنة المحلية، أو الأخرى المنجزة من طرف مؤسسات الدولة.

1- المحافظة على الأراضي بين الخطاب والممارسة:

لقد عرف المجتمع المغربي تحولات جذرية مست جميع قطاعاته الحيوية بما في ذلك المجال الفلاحي، الذي يعتبر ركيزة هذا المجتمع، ومن تمة كان التفكير في جعل هذا القطاع مندمجا و مستفيدا من بعض التقنيات ومعطيات العصر الحديث.

ولعل من بين الوسائل التي سعت للرفع من عطاءات الأرض انحصرت في الآونة الأخير في توعية الفلاح ومحاولة مواكبته في تلك العلاقة القائمة بينه وبين أرضه وماشيته، أو بعبارة أخرى جعله أكثر إحاطة وتحكما في بيئته ومنه صيانتها.

ورغم تعدد وسائل التوعية والتوجيه في الآونة الأخيرة، والمتمثلة بشكل رئيسي في الإرشاد الفلاحي المباشرة، أو استغلال وسائل الإعلام لهذا الغرض أيضا عبر برامج أو وصلات تُسَخَّر لهذا الغرض، إلا أن محدودية هذه الوسائل تبقى واضحة للعيان، وذلك للتخلف الذي يعرفه هذا النشاط مقارنة بالتطور الحاصل على مستوى العالم، وما منطقة دراستنا إلا نموذج مصغر على محدودية هذه الوسائل.

1-1-مركز الاستشارة الفلاحي ووسائل الاعلام: فاعلان تواصلهما محدود

1-1-1- مهمة المرشد الفلاحي في تأطير الفلاح

نظريا يقوم المرشد الفلاحي بعدة تجارب فلاحية في المنطقة التي يتحرك داخل نفوذها، وذلك قصد معرفة أنواع المزروعات والأشجار التي تصلح لتربة تلك المنطقة، ثم بعد ذلك يأتي دور التوجيه والتوعية، وإرشاد الفلاح لأحسن الطرق في التعامل مع الأرض، من غراسة أشجار، واختيار أنواع المزروعات الصالحة، إلى كيفية الحرث وغيرها من التقنيات. غير أن هذا الدور لا يجد طريقه نحو التطبيق بشكل فعال نظرا إما لشساعة نفوذ المجال وقلة الموارد البشرية، أو لأسباب أخرى مرتبطة بعدم التغلغل داخل كل منطقة منطقة والاكتفاء بجمع فلاحي ثلاث جماعات أو جماعتين في نفس التكوين وهو الأمر الذي تعانيه منطقتنا.

و في دراسة أردنا من خلالها أن تكون تفاعلية بين ما جاء على لسان مسيري مركز الاستشارة الفلاحية وبين الفلاح المحلي، سئلنا هذا الأخير عن مدا رضاه عن التكوينات المقدمة من طرف هذا المركز الذي أكد لنا عن استفادة فلاحي مختلف جماعات الإقليم من التكوينات التي يشرف عليها مستشاروه ومن بينهم فلاحوا جماعة عين الدفالي التي ينتمي اليها مجال دراستنا، و التي أكد لنا المركز أنه قدم ثلاث

دورات تكوينية في مطلع سنة 2021 بالجماعة التي ينتمي إليها، وكانت المواضيع كالآتي: موضوع أول عالج التسميد الشتوي وطرق محاربة الأمراض التي تصيب شجر الزيتون خصوصا " عين الطاووس"، و أجريت على طريقة "المدرسة الحقلية" (الصورة 01). وآخر ثاني تطرق إلى زراعة الزيتون وطرق تثمين المنتوج. فيما عالج الثالث التسميد الشتوي لأشجار الزيتون، وتطرق كذلك لكيفية محاربة الأعشاب الضارة بالمحاصيل الزراعية.

ورغم هذه الجهود، أفاد حوالي نصف المستجوبين بأنهم لا يعرفون أماكن انعقاد هذه الدورات التكوينية. ومن بين 55 فلاحًا شملهم الاستطلاع، حضر ثلاثة فقط (5.45%) لهذه الدورات، وأعربوا عن رضاهم.

الصورة (01): دورة تكوينية بطريقة المدرسة الحقلية تجريها مستشارة فلاحية

المصدر: مركز الاستشارة الفلاحي (26-02-2021)

يبدو أن الجهود المبذولة من طرف مركز الاستشارة الفلاحية تتبدد عند عتبة التواصل. فعلى الرغم من أن الوسائل المستخدمة لإيصال المعلومة، مثل المدارس الحقلية، تعد فعالة ومفيدة لما توفره من احتكاك مباشر بالمجال، مما يتيح تطبيق ما يُشرح نظريًا داخل القاعات بشكل عملي، إلا أن ضعف التواصل يمثل العقبة الكأداء. هذا الضعف يتجلى بوضوح في الأرقام المقلقة التي أظهرتها الدراسة؛ إذ إن نسبة الحضور إلى هذه التكوينات ضئيلة جدًا مقارنة بالمجهودات المبذولة، بالإضافة إلى أن حوالي 50% من المستجوبين لا يعرفون أماكن انعقاد هذه التكوينات أساسًا.

1-1-2- اعتماد الوسائل السمعية في ارشاد الفلاح

تعد هذه القناة واحدة من الوسائل المهم في عالم التواصل الت تعتمدها المكاتب الإرشادية المتواجدة بجل ربوع المملكة المغربية، نظرا لانتشار المذياع في جميع المجالات وسهولة استعماله حتى في حال عدم وجودك في بيتك. غير أن استفادة الفلاح من التوجيهات والارشادات المذاعة تظل على نفس وثيرة المرشد الفلاحي؛ حيث يقف في وجه تحقيق هذا التواصل أن مراعات خصوصية كل منطقة على المستوى المناخي والترابي، أو موافقة أسمدة معينة لتربات من عدمها، يُغَيَّب. وإن حضر ذلك، يحضر بشكل يُستعصَى على الفلاح اِلْتِقافه، وهاته الملاحظة استنتجناها من تتبعنا لثلاث حلقات اخذناها بشكل عشوائي من الارشادات التي تتم ميدانيا ويتم نقلها بشراكة مع احدى القنوات الخاصة على الراديو. كما أن هذه الإرشادات تبدو موجهة إلى مناطق محددة دون غيرها، وغالبًا ما تكون تلك المناطق التي تتمتع بنظام ري منتظم أو بزراعات مخصصة للصناعات. وبهذا الشكل، قد تتحول هذه الإرشادات أحيانًا إلى خدمة نخبوية ضيقة

تستثني شرائح واسعة من الفلاحين. ولم يتسنى لنا إقحام أسئلة للفلاحين حول متابعتهم لهذه الارشادات السمعية؟ وإلى أي حد يفهمونها؟ وهل يستفيدون منها ويطبقونها باستغلالياتهم؟

1-1-3- اعتماد الوسائل البصرية في إرشاد الفلاح

إن قيمة التلفزة كوسيلة بصرية في نشر وعي فلاحي في البوادي، وقيمة وسائل التواصل الاجتماعي وخصوصا في ظل أزمة كورونا الصحية الحالية لازالت متعثرة، وتعتريها نواقص كثيرة، منها ما يعود لطبيعة التلفزة ووسائل التواصل الاجتماعي نفسيهما، ومنها ما يرجع للفلاح. فإذا كان التلفاز قد اقتحم البادية المغربية اليوم، فوسائل التواصل الاجتماعي لا يلجأ إليها الفلاحون خصوصا منهم الكهول والشيوخ. ثم إن التلفزة تفتقر إلى برنامج قار تتواصل فيه مع الفلاح، اللهم إذا ما استثنينا بعض الروبورتاجات أو الوصلات التي تتناول موضوعا فلاحيا ما، وتكون في خضم نشرة إخبارية أو برنامج توعوي.

2- أشكال الإعداد والتهيئة المجالية بحوض المرابيح

تختلف الأساليب، والتقنيات، وكذا الفاعلون، والهدف واحد، ألا وهو الحفاظ على الرأسمال الترابي من الانجراف. والذي بمحافظتنا عليه نكون قد حافظنا على المنطقة وساهمنا في تنميتها. وقد عرفت منطقتنا عدة تدخلات سواء عبر الجهات العمومية أو الساكنة المحلية.

2-1- أشكال التهيئة التقليدية لاستصلاح الأراضي والحد من انجراف التربة:

إن خِبرَة الإنسان لبيئته عبر العصور أكسبه معرفة عميقة بشؤونها، حيث تعتبر التقنيات التقليدية التي يعتمدها السكان المحليون والموروثة تاريخيًا وسيلة فعالة للحد من تدهور الأراضي، وفي بعض الحالات، تساهم في الحفاظ على رأس المال الترابي للفلاح. ومن خلال خرجتنا الميدانية واستجوابنا للساكنة المحلية، اتضحت لنا بعض هذه الخبرات. فقد لوحظ، على سبيل المثال، إصرار بعض الفلاحين على الحرث باتجاه خطوط التسوية رغم الإكراهات الطبوغرافية أو الناتجة عن تفتت الاستغلاليات. كما أنهم يقومون ببناء مدرجات صغيرة لتقليل قوة جريان المياه من أعالي السفوح نحو قيعانها (صورة 02).

1-1-2- الدرجات الترابية

تهدف هذه التقنية إلى الحد من انجراف التربة عبر بناء مجموعة من المدرجات التي تعمل على تخفيف وطأة الانحدار، مما يسهم في التخفيف من المشاكل المرتبطة به على المستوى الفلاحي، مثل انخفاض المردودية الزراعية وارتفاع معدلات التعرية وظهور بعض الأشكال المرفوتشكالية. وتبقى هذه التقنية ضعيفة الانتشار في مجال دراستنا، ويقتصر وجودها على دواري الشاوية الرمل والمرابيح.

الصورة (02): درجات ترابية قام بإنشائها أحد فلاحي دوار المرابيح قصد تكسير قوة المياه الجارية على السطح

المصدر: عدسة الباحث (13-07-2020)

2-1-2- عملية التشجير

يلجأ الفلاح، بالتوازي مع التدخلات التقنية التي يعتمدها، إلى تشجير أرضه. وقد تبدو هذه العملية بديهية من النظرة الأولى، لكنها في الواقع تشكل نوعًا من التهيئة الزراعية. تُعدّ التهيئة غير مباشرة عندما يقوم الفلاح بغرس شجرة أو شجيرات بشكل متفرق، بينما تُعتبر مباشرة عندما يغرس مجموعة من الأشجار دفعة واحدة في مساحة محددة. ومن خلال الاستمارة الميدانية، تبين أن غالبية فلاحي حوضنا النهري قاموا بغرس أشجارهم بمجهوداتهم الخاصة، دون أي دعم خارجي. فقد أظهرت نتائج الاستمارة أن 72.72% من المشاركين أكدوا أنهم هيأوا أراضيهم بأنفسهم، في حين أفاد 18.1% بأنهم دخلوا في شراكة مع الدولة في عملية التهيئة، بينما أشار 9.09% إلى أن الدولة وحدها تولت تهيئة أراضيهم.

الصورتين (03)و(04): تدخلات الساكنة من أجل استصلاح بعض الاراضي التي بدأ التدهور يجتاحها

المصدر: عدسة الباحث (14-07-2020)

وتعكس النسبة الكبيرة من الفلاحين الذين تدخلوا في تهيئة أراضيهم بشكل فردي، رغم المشاريع المتداولة على نطاق واسع، وجود فجوة واضحة بين المؤسسات والساكنة المحلية. هذا الواقع يثير تساؤلات جوهرية حول مسألة الثقة المتبادلة وضعف قنوات التواصل بين الجانبين، مما يعكس الحاجة إلى إعادة النظر في آليات التعاون والتواصل لضمان شمولية وفعالية المشاريع التنموية.

2-2- أشكال تدخل الدولة لتهيئة المجال والحد من التعرية المائية:

ارتكز تدخل الدولة في منطقة الدراسة على عمليات التشجير التي نفذتها المديرية الإقليمية للمياه والغابات ومحاربة التصحر لسيدي سليمان. وقد أوضح لنا مدير فرع المنطقة الغابوية لعين الدفالي أن منطقتنا كانت ضمن المناطق المستهدفة، لكن التدخل اقتصر على مساحة صغيرة جدًا، وبأشجار الأوكالبتوس تحديدًا. يعود هذا التدخل المحدود إلى قلة الأراضي المصنفة ضمن "أراضي المخزن" في المنطقة.

تتركز هذه الأراضي المحدودة، التي تُعرف بالأراضي المخزنية، في دواوير الشاوية الرمل والمرابيح وأولاد بوكر. وهي أراضٍ زراعية تتضمن مغروسات زيتونية، وتُكترى من الدولة مقابل مكوس. إضافة إلى ذلك، قامت وزارة الفلاحة بالتدخل في بعض هذه الأراضي بتحويل استخدامها من زراعة الحبوب إلى زراعة أشجار الزيتون، مما يعكس سعيًا نحو تحسين استغلال هذه الأراضي بما يتماشى الرافعة الثانية ل "مخطط المغرب الأخضر"، والذي يرمي إلى تكثيف المغروسات الشجرية المثمرة. حتى إن مركز الاستشارة الفلاحية لأحد كورت ما فتئ

ينظم دروسا ودورات تكوينية تدور رحى أغلبها حول كيفية زراعة الزياتين، وكيفية تسميدها، وكيفية تقليمها. وقد شاركنا في إحدى هذه التكوينات التي أقيمت في نفوذ جماعة عين الدفالي، حيث قدم مستشار فلاحي دروسًا عملية للمستفيدين من مشروع تحويل زراعة الحبوب إلى زراعة الزيتون. أعرب الفلاحون المشاركون من منطقة الدراسة عن رضاهم وانخراطهم في هذا التحول الزراعي. وفي ختام التكوين، وزع المركز على المستفيدين معدات زراعية مخصصة للتقليم وغيرها، مما يعكس دعمه العملي للمزارعين وتعزيز نجاح المشروع.

1-2-2- تدخل المندوبية الجهوية للفلاحة

اقدمت وزارة الفلاحة والصيد البحري في شخص المديرية الجهوية للفلاحة –الغرب الشراردة بني احسن سابقا، بشراكة مع المغرب الأخضر لتنمية الأشجار المثمرة بدائرتي ورغة و تلال الغرب – إقليم سيدي قاسم، بالتدخل بجماعة عين الدفالي وفق مشروع يروم تمديد وإنتاج 2500 هكتار من الزيتون. بدأ شطر المشروع الأول ب500 هكتار سنة 2008، فيما جاء الشطر الثاني و الأخير بعد ذلك سنة 2012 على مساحة 300 هكتار.[2] وعن سؤالنا حول 700 هكتار المتبقية من البرمجة والتي لم ترى النور، لم نجد جوابا. أما المساعدة التقنية فقد قامت بها شركة فيتوكونسلتينغ الإسبانية، التي فوتت بدورها المشروع إلى مقاولة مغربية تدعى "شركة الذهبي عبد الحق".

وقد كانت حصة مجالنا من هذا المشروع في حدود 60 هكتارا حسب المندوبية الجهوية للفلاحة، وهو رقم ضعيف إذا ما قورن بالمساحة الإجمالية للمجال.

وقد أكدت الوزارة على أن مركزها للاستشارة الفلاحية هو الآخر يقوم بأعمال ترمو من جهة إلى المحافظة على الأراضي، ومن جهة أخرى إلى تحسين إنتاجية الفلاح، وذلك وفق عدة قنوات:

طريقة التوعية التي أسلفنا ذكرها في المحور الأول، والمعتمدة على إقحام كل الساكنة بدوراتهم التكوينية حتى وإن لم يكونوا منخرطين في مشروعهم الذي يرمو إلى استبدال الزراعات بأشجار الزيتون.

المواكبة التقنية للفلاحين الذين يودون استبدال زراعتهم بأشجار الزيتون إلى أن تنجح عملية التشجير.

الصورة (05): نموذج لفشل تهيئة سفح تدخلت فيه الدولة بدوار أولاد أكثير.

المصدر: عدسة الباحث (13-07-2020)

الصورة (06): إحدى السفوح التي تم تدخل الفلاح مع مركز الاستشارة الفلاحية فيها (دوار الشاوية الرمل)

المصدر: عدسة الباحث (13-07-2020)

الصورة (07): التدرب على طريقة زبر شجرة الزيتون تحت إشراف المستشار الفلاحي

المصدر: عدسة الباحث (15-10-2020)

الصورة (08): مستشار فلاحي يوضح كيفية زراعة شجرة الزيتون

المصدر: عدسة الباحث (15-10-2020)

خاتمة:

من الواضح أن المنظومة الإدارية، المتمثلة في مراكز الاستشارات الفلاحية المغربية بشكل عام، ومركز الاستشارة الفلاحية بأحد كورت بشكل خاص، تقوم بدور جيد في توعية الفلاح من خلال البرامج التي تتبعها والوسائل التقنية التي تعتمدها. بيد أن الجانب المظلم في هذه المراكز يتجلى في أن عملية التوعية لا تشمل جميع الفلاحين؛ إذ يعاني الجانب التواصلي من ضعفٍ أحيانًا، مما يحول دون حضور الفلاحين للدورات التكوينية. في هذا الصدد، تقع المسؤولية على عاتق المركز والمؤسسات العمومية والمجتمع المدني. من ناحية أخرى، هناك من الفلاحين من لا يأبه بهذه الدورات رغم معرفته بوجودها وتوقيتها، وهو أمر يستدعي البحث في خلفيات هذا العزوف.

وعلى الرغم من أن المركز الاستشاري لا يحقق النجاح المنشود في التوعية، فإن الوسائل الأخرى المخصصة للإرشاد، كالإذاعة والتلفزة ووسائل التواصل الاجتماعي، لا تستطيع – لقِلَّتها وموسميتها – تأدية الوظيفة المنوطة بمرشد المنطقة، فما بالك بتحقيق التوعية الشاملة.

أما الجانب المتعلق بالتهيئة، فمن خلال دراستنا للتدخلات الرامية إلى تهيئة وصيانة المجال، نجد أن التدخل التقليدي من طرف الساكنة المحلية هو السائد؛ إذ أن ما يقارب 72.72%من التهيئة المتواجدة أنجزتها الساكنة المحلية بالاعتماد على وسائلهم وخبراتهم. أما نسبة 18.1%فكانت نتيجة تداخل بين الدولة والساكنة المحلية، في حين أن 9.09%المتبقية قامت بها الدولة لوحدها.

ورغم عمليات التشجير التي عرفتها الجماعة بين عامي 2008 و2012، والتي أسفرت عن غرس ما يقارب 1000 هكتار من أشجار الزيتون، فإن نصيب منطقتنا المدروسة كان 60 هكتارًا فقط، على الرغم من أن الامتداد المساحي لحوضنا النهري يشكل ما يقارب ثلاثة أعشار مساحة الجماعة.

الهوامش:

[1]المندوبية السامية للتخطيط –الإحصاء العا للسكان والسكنى 2014

[2]وزارة الفلاحة والصيد البحري والتنمية القروية والمياه والغابات –المديرية الإقليمية سيدي قاسم